ويلز

الرجل الذى يصيح على الملأ : " العالم وطنى ! "

فى حديث اجل أقصه عليك عن " ويلز " لا احسبك تتوقع منى أن أحدثك عن مذهبه وأين ولد . فمن المحقق أنه لو كان قد تأخر عن رؤية هذا العالم أو تقدم لما كان لهذا من أثر على آدابه فى كثير أو قليل . كما أن البلدة التى أنجبته لم تكن قاصرة على انجاب ذوى الكفايات حتى نخصها بالذكر فكل هذه اذن أمور انما ذكرتها فربما أتعبت من المذاكرة دون أن توفر لك المحصول .

فدعنى اذن أحدثك من ويلز . عن شخصية ويلز . وأحلل لك منه ... الفكرة .

شخصية ويلز فى آدابه :

ويتلمس دارس أعمال ويلز القصيرة — والطويلة — والطابع العلمى فى موضوعها وتسلسل الحوادث فيها . وبرغم أن الوقائع التى يأتى عليها ويلز فى قصصه اشتهرت باستحالتها ان لم يكن ببعيد الأمل فى وقوعها الا أنه يروعك منها دقة البناء وإحكامه وملاءمة كل ناحية فيه فهذا الرجل لم يدع دقيقة من دقائق العلم الا وعالجها . أو احتمال يمكن أن يثيره الموضوع فى ذهن القارئ الا وذكره . ويظل القارئ يستمع الى ويلز على صفحات كتبه . وتظل الكتابة تستهويه . حتى اذا ما أغلق الكتاب وبعد عنه (ويلز) قليلا . وأراد أن يستعيد فى ذاكرته ما مر بها . أو يقص على غيره ما قرأ . عندئذ . سيرى كم يبدو منه القول أجوفا . وسيتحقق أنه لم يصدق كل هذه الوقائع المستحيلة — ان صح أن تكون هناك وقائع مستحيلة الا لأن عقلا مدبرا كان يرويها له .

وفى مجموعة من القصص القصيرة لويلز أسماها " أقاصيص عن الحب والمغامرات تحدث عن الحب فى بعضها وعن المغامرة فى البعض الآخر . وعن العلم فى الاثنين . كانت من بينها قصة تحت عنوان "البكتريا المسروقة" تدور حوادثها حول زيارة لدى أحد العلماء فى معمله من قريب له . وأخبره العالم فى خلالها عن الأثر القتال لمحتويات أنبوبة مليئة بنوع من أنواع البكتريا العصوية الحملة بميكروب الطاعون . وذكر له أن قطرة منها فى جوف نهر كافية لفناء كل الشعوب التى تستقى منه . ولسوء حظ العالم — ولارضاء الناحية الروماتيكية فى القصة — ان كان العالم مفعما بالغيظ من مكان دائرة انتخابية خذلته . وانتهز فرصة استدارة العالم لأمر ما وسرق الأنبوبة وأخفاها بين لفائفه . وجرى نحو النهر الذى يروى أراضى مكان

المقاطعة ويطفئ ظمأهم . وانسابت محتويات الأنبوبة نحو سكان المدن البريئة مع مياه الشرب فى الوقت الذى أحس العالم بنقص فى أنابيبه . وأدرك الأمر . وهرع نحو صديقه يحول بينه وبين هول ما يفعل . وكان فى رحلته اليه على عجل . وكانت رحلة شاقة تحدث ويلز فيها عن المغامرات بما يرضى عنوان مجموعته . ولكنه لم يصل اليه الا بعد فوات الوقت فلقد سكب السائل ! ... ويتوقع القارئ بعد كل هذا أن يسمع عن مئات الألوف من السكان يموتون بالطاعون . ولكن ويلز لا يفجعه فيهم . وإنما يختم قصته بأن يهرول مساعد العالم اليه ويدركه مع صاحبه . ويعتذر له عن خطأ ارتكبه وذلك أنه عند لصق البطاقات على الأنابيب فى الصباح الصق بطاقة البكتريا على زجاجة لم تحو إلا سائلا عضويا معذبا !

وفى أعماله الأدبية الطويلة يجد ويلز من صفحاتها متسعا لأن يخلو بالقارئ كما يشاء ويسيطر عليه كيفما يشاء ، ويعرض عليه باسهاب ما توصل اليه فى بحوثه العلمية التى بنى عليها القصة . وينساب معه فى الحديث ويتدرج فى العرض وفى التدليل بالكلام وبالسطور وبالرسوم البيانية حتى يقنعه ثم هو فى كل ذلك يقلب أمامه صفحات من ألذ القصص وأمتعها .

فهو فى قصته " غذاء الآلهة " يشرح كيف أن الشاب فى دور مراهقته ينمو باسراع . وتلك حقيقة لاشك فيها . أما الشك فهو فى سببها . ولم لا يأتى هذا النمو الفجائى إلا فى دور المراهقة لا قبله ولا بعده ؟ بل ولم لا يستمر ؟ وهلا يمكن أن يحيا المرء حياة كلها مراهقة ؟ وكيف يكون حجمه عند ذاك ؟ ومن المحقق أن فترة النمو تدوم مادام لمحرك . ولقد بحث ويلز عنه . وعرف أنه مادة غريبة يحويها دم المراهق أبان مراهقته وليس يحويها إلا حينذاك . ويجعل بطل قصة ويلز — وهو طبيب — بعضا من هذه المادة ثم يقدمها مع أغذية أطفاله فاذا بهم يراهقون فى شهر . فهم أطفال شبان . تدفعهم المربيات فى عجلاتهم ولكنهم يحجمون وإنما يفضلون على هذا معازبة المربيات أيسوا شبانا " . ثم يستمر ويلز فى تحليل النتائج !

والكثير منا من شاهد قصة " الرجل الخفى " التى تقوم على توفيق رجل فى تحطيم الجاذبية بين ذرات الجسم الدقيقة فتتفرق . وإذا بالرجل منفصل الأعضاء والذرات ويتلاشى وتمكنه هذه الخاصية من الإتيان بكل احتفائه بما يحيه عليه عقلية المجرم . ولم أميل لأن يكون مجرما إذا أوتى قوة . ولكن ويلز فى نهاية القصة لا يترك بطله يستمر فى إفلاته من أيدى البوليس .

وفى قصته : جزيرة الدكتور مورو ومقاومة جاذبية الأرض يخلو ويلز نفس الخلو فيما يكتب . فهو يبدأ بشرح حقيقة علمية لم يتوصل العلماء الى اكتشافها

بعد . وحسبنا يعلمون . ذلك أن تلك الحقيقة إن تحققت ففيها نهاية العالم . ويسير ويلز مع قرنه مبينا إمكان تحققها وما يتلوها من نتائج ولكنه — كما رأينا — لا يفنى العالم فى نهاية قصته و إنما يترفق به . فهو يحبه حبا جما .

اقتصاديات ويلز :

ولست أغالى إذا ذكرت أن ويلز يحب هذا العالم حبا جما، ولك أن تتلمس هذا الحب فى كتابه الذى ألفه فى أربعة أعوام وأسماه " جهود وثروات الإنسان وسعادته وقد فيه كل التوجيهات التى تواضع البشر عليها فى تحصيل معاشهم وذكر ما للاقتصاد الدولى من أثر فى نواحى العالم الاقتصادية وغيرها . وسأذكر لك من عباراته مايوضح الغرض منه على أن ترجع إليه إن شئت التعمق فى دراسة هذا الفكر الجبار أو أن تنضم إلى جماعة Wells Society الداعين لمبادئه نحو تقويم جهود الإنسان و إنماء ثرواته والعمل على إسعاده .

فيقول ويلز إن هذا العالم ملىء بالمغالطات . فهو بينما يسجل بماء الذهب اسم ابطل كتابليون لم يفعل سوى أن شيد امبراطورية بدماء الضحايا ثم أفناها، فانه حتى الآن لم يعرف بعد الكشف الحقيقى للسفينة البخارية التى ربطت الناس وشيدت وحدة عالمية اقتصادية باقية مابقى العالم .

وتعجب من ويلز أن يجرأ على التفوه بمثل هذه الآراء الاستهزائية فى بلد كانجلترا ولكنه يستمر فى سرد معالطات العالم عاجبا من أن كل أمة اليوم بصفتها عضوا فى العائلة الدولية تستنكر أى اعتداء من أمة قوية على أخرى متضعفة . مع أن التبعة واقعة على الأمم نفسها . ذلك أن الدول الآن تتبع فى تربية بنيها مبادئ تتضمن عداء للآخرين . فمن الأسس الحديثة لتربية الأمية فى أوروبا — أن يقوم الأطفال تقويما عسكريا ويلقنون حب الوطن قبل أن يتقنوا آداب المائدة . ويعرفون كيف يدافعون عنه ويعملون على نصرته وارتفاع شأنه واعلاء كلمته . أليس فى هذا الرفع خفض من شأن الغير وتحقير لكلمتهم ؟

ثم يكن من الواجب قبل إلقاء هذان الصغار تراجم طفة التاريخ أن يعلم عليهم أثر أعمال أجدادنا وآرائهم المتنابية حتى خلقوا لنا دنيا جديدة من الدقة والإحكام .

لقد تلاحق البشر على هذا العالم جيلا جيلا . وقدموا له جهودهم جهدا جهدا . ويخلفوا له جيلا آخر هو أحسن منهم بفنون . كما لو كانت رسالتهم هى أن يقدموا لعالم هذا الجيل

الجيد . و يهبوا لجيلهم الأخير تراثا هو خير ما فعلوا ؟ أفليس اذن من حق هـذا الجيل أن يذكر جهود مورثيه بما تستحق :

ثم ان و بلزلا ييأس من نجاح مايدعو اليه . وهو فى الوقت ذاته لايزعم أنه — وان بشر به — ينسب لنفسه ثمرة نجاحه . فهـو يصرح باستحالة دعوته أن تكون ذات أثر طالما أن ليس هناك عوامل مادية وطبيعية تؤدى اليها فى النهاية . ولكن هذه العوامل موجودة . فقـد عممت وسائل المواصلات والنقل على أن تتخذ العالم أجناسه ويتعاملو . يتدون زيا واحدا ويقتاتون على مائدة واحدة — يقصد تصدير المواد غذائية واستيرادها — وعمل التايمون اللاسدكى على أن يتخاطب الانجليزى فى لندن مع أخيه أو صديقه فى الصين و يسمعه كما لو كان فى الحجرة المجاورة . وعمل البيقيريون على أن يراه كما لو كانا معا فى حجرة واحدة . فمادا ينتظر العالم الذى تعتمد حياة أممه بعضها على البعض . سوى أن يزيل من حدودها .

فالعالم سائر إذن إلى تكوين أمة عالمية واحدة لها مدنية واحدة وان أنكر . وهو سائر إليها — كما هو فى كل سيره — معصوب العينين لايدرى من أمره شيئا !

العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الانفاق ، وصنيع المال يزول بزواله .

على بن أبى طالب